كتابك

٦

على أدهم

تاريخ التاريخ



دار المعارف

كتابك ٦

على أدهم

تاريخ التاريخ



مقدمة

تاريخ التاريخ من الموضوعات البعيدة الأعراق ، المتعددة الأطراف ، وقد استأثر بجهود طائفة من مبرزى المؤرخين مثل المؤرخ روبرت فلنت فى كتابه عن « فلسفة التاريخ » والمؤرخ بارنز فى كتابه عن « تاريخ الكتابة التاريخية » والمؤرخ شوتول فى كتابه « مقدمة لتاريخ التاريخ » وغيرهم من الباحثين ، وهو برغم ذلك لا يزال فى حاجة إلى المزيد من البحوث التى تتناول شتى نواحيه ، ومختلف أجزائه وجوانبه ، وكلما تقدمت الكشوف الأثرية ازداد اتساعاً وشمولاً ، وتحقيقاً لأطرافه وتصحيحاً لأحداثه ، وبعد مرماه ، وامتد مداه ، وهو يقتضى دقة نظر ، وجهد ذهن لسد أغواره ، والإحاطة بأبعاده ، وكلما كثر البحث فى نطاق المخطوطات والوثائق والآثار والنقوش كشفت مصادر كانت مجهولة وتجلت حقائق لم تكن معروفة .

وقد استهل المفكر البحاثة « ماكس نورداو » كتابه عن تفسير التاريخ بملاحظة الخلط السائد فى كل مكان بين التاريخ فى ذاته وكتابة التاريخ وتسجيل أحداثه ، وهو يأخذ على الباحثين فى فلسفة التاريخ —

حتى الذين أجادوا البحث فيها وأحسنوا تناولها — أن جهودهم اتجهت إلى جعل الوصف والموصوف شيئاً واحداً ، أى أنهم لم يفرقوا بين التاريخ وكتابة التاريخ ، وعنده أن هذا ينطوى على شيء من الغرور والادعاء الصارخ ، وزعم المؤرخون أن التاريخ وهو ذلك الجزء من قصة الدنيا الذى عرضته التقاليد المتعاقبة ، وسجل فى التاريخ المكتوب يدل على الإسراف فى الثقة بالنفس ، وأن القدماء كانوا أشد فطنة وأكثر حكمة حينما قالوا إنه كان هناك أبطال قبل أجاممنون قد أسدل عليهم الظلام أستاره ، فلم يرق أحد عليهم دمعاً ولم يختصهم إنسان بالتكريم والتمجيد ، ويستشهد بقول السعدى فى جولستان : «كثير من الأبطال يرقدون فى جوف الأرض وقد نسى ذكرهم ولم يسمع لهم صدى لأنهم لم يتغن بأمجادهم شاعر ، ولم يذكر ما قاموا به من أعمال مجيدة وما لهم من مواقف مشرفة

والتاريخ له وجوده القائم بذاته ، وهو بطبيعة الحال أوسع نطاقاً وأبعد مدى من التاريخ المكتوب ، لأنه يتناول كل ما حدث سواء الأحداث الهامة البعيدة التأثير أو الأحداث العادية المألوفة ، وكل ما فكر فيه الإنسان وهجس فى نفسه وتصوره بخياله ، وليس هناك فرق جوهرى بين الإنسان المغمور والفاتح الذى ملأت شهرته الآفاق ، ففى كليهما الروح الإنسانية ، وكلاهما تسرى عليه أحكام الطبيعة والفرق بينهما فى الكم لا فى النوع ، وكثيراً ما يهمل المؤرخون تأثير الأحداث الطبيعية الخارجة

عن إرادة الإنسان فى حين أن تأثيرها فى الأفراد والجماعات والأمم وفى الوجود الإنسانى بوجه عام قد لا يقل عن أهمية تأثير النظم الاجتماعية والسياسية والعقائد والمعتقدات الدينية .

وأقدم الوثائق التاريخية كانت كتابات ورسوماً ونقوشاً على المعابد والقصور والمقابر التى أقامها الملوك والغزاة الفاتحون لتسجيل انتصاراتهم والإشادة بأخبار المعارك التى خاضوا غمارها والبلاد التى استولوا عليها ، وحلقات أنسابهم وما جمعوا من ثروات واقتنوا من مدخرات .

وقد اختلفت الآراء فى تفسير كلمة تاريخ وأصلها ، ويقول المؤرخ السخاوى فى كتابه « الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ » التاريخ فى اللغة الإعلام بالوقت ، يقال أرخت الكتاب وورخته أى بينت وقت كتابته ، قال الجوهرى التاريخ تعريف الوقت ، والتوريخ مثله يقال أرخت وورخت . وقيل اشتقاقه من الأرخ يعنى بفتح الهمزة وكسرها ، وهو الأنثى من بقر الوحش ، لأنه شىء حدث كما يحدث المولد» انتهى ، وقد فرق الأصمعى بين اللغتين ، فقال بنو تميم يقولون ورخت الكتاب توريخا ، وقيس تقول أرخته تأريخاً ، وهذا يؤكد كونه عربيا ، وقيل إنه ليس بعربى محض بل هو معرب مأخوذ من «ماه روز» بالفارسية ماه القمر وروز اليوم وكأن الليل والنهار طرفة ، قال أبو منصور الجواليقى فى كتابه المعرب من الكلام الأعجمى : « يقال إن التاريخ الذى يؤرخه الناس ليس بعربى

محض ، وإنما أخذه المسلمون من أهل الكتاب ، وتاريخ المسلمين أرخ من سنة الهجرة . كتب فى خلافة عمر رضى الله عنه فصار تاريخاً إلى اليوم » وقال أبو الفرج قدامة بن جعفر الكاتب فى كتاب الخراج ، تاريخ كل شيء آخره ووقته الذى ينتهى إليه زمنه ، ومنه قيل لفلان تاريخ قومه ، إما لكون المنتهى إليه فى شرف قومه كما قال المطرزى وذلك بالنظر لإضافة الأمور الجليلة من كرم أو فخر أو نحوها إليه وإما لكونه ذاكراً للأخبار وما شاكلها » .

ويقول المؤرخ فراز روزنتال فى كتابه « علم التاريخ عند المسلمين » : « إن الأصل التاريخى لكلمة Istoria الإغريقية (وهى ما تقابل كلمة تاريخ فى اللغة العربية) ذو أهمية أكبر ، فعندما نشطت الحركة الفكرية والسياسية نشاطاً عظيماً فى الدويلات الأيونية فى القرنين السادس والخامس قبل الميلاد ، كان تعبير Istoria يقصد منه البحث عن الأشياء الجديرة بالمعرفة ، أى لنوع من المعرفة كان يهم كل مواطن دولة المدينة الواحدة ، ألا وهى معرفة البلاد والعادات والمؤسسات السياسية المعاصرة أو الماضية ، وسرعان ما أصبحت كلمة Istoria مقتصرة على معرفة الأحداث التى رافقت نمو هذه الظواهر ، وبذلك ولد تعبير التاريخ بمعناه الشائع ، وقد أخذ الرومان تلك الكلمة بمعناها ومبناها ، وظلت كلمة Historia تعبيراً فنياً لم تتبدل حروفه بانتقاله إلى اللغات الرومانية كما

كان يحدث لو كانت هذه الكلمة دارجة الاستعمال عند العامة » .

ولما كانت الإحاطة بهذا الموضوع الحافل بالقضايا والمشكلات تستلزم بحوثاً مطولة لا يسمح الحيز المحدد لكتب هذه السلسلة فلذلك سأكتفي بالإشارة إلى بعض معالمه البارزة ، ملتزماً الإيجاز ومجافاة الإسهاب .

أصول الكتابة التاريخية

طبيعة التاريخ :

كلمة التاريخ فى الاستعمال المألوف مصطلح يشمل معنيين مختلفين ، وفى أغلب الأحيان يقصد به الأعمال والمنجزات التى قام بها الإنسان فيما مضى من الزمان ، وكثيراً ما يستعمل كذلك ليدل على رواية تلك الأعمال والمنجزات وتسجيلها ، وهو بهذا المعنى لا يوجد إلا فى الصورة التى يصور بها ، أى فى الصورة التى أعاد خلقها العقل ، وفى بادئ الأمر كان للأساطير والتخيلات والأوهام أثر ظاهر فى تكوين التاريخ ، ولكن ضرورات الحياة ، ومشكلاتها العامة والخاصة ، استوجبت مراعاة الواقع ، ولو إلى حد ما فى مراقبة الأحداث وتسجيل الوقائع ، وترجع نشأة التاريخ بهذا المعنى إلى قدرة الإنسان على تخيل الماضى والإحساس الفنى الجمالى الذى يلم به حينما يروى أحداث الماضى ويستحضر صوره ، ولم تبدأ كتابة التاريخ بوصف الأحداث ، لأن ذلك كان من وراء قدرة الإنسان فى فجر حضارته ، ولأن الموارد التى تعينه على معالجة الكتابة كانت لا تزال غير ميسورة ، وكان الأدب فى أول ظهوره مقصوراً على

الشعر ، وفى أول ظهور الأدب كان الرجل العبقرى يغنى ما يريد أن يقوله وينشده ، وقد سبق الشعر النثر ، وكان الشعر الملحمى والشعر الذى يتضمن سير الأبطال هما أول ألوان الأدب وأسبق فنونه إلى الظهور ، وكانت هذه المنظومات تتضمن عناصر تاريخية مشوبة بالأساطير ، وذلك لأن الأساطير والخرافات والأقاصيص كانت أحب إلى الإنسان البدائى من الواقع الحقيقى ، ويبدو لنا أنه من السهل اليسير النظر إلى الوقائع التاريخية كما هى فى ذاتها ، ولكن ممارسة الحوادث واستطلاع الأمور ومعاناة التجارب تدل جميعها على أنه ليس أشق على الإنسان من النظر إلى الأحداث والوقائع فى ذاتها ، والقدرة على ذلك ليست من المواهب التى تجود بها الطبيعة فى يسر وإسماح ، وإنما هى من ثمرات تقدم الثقافة ، وهى لم تتوفر لقوم من الأقوام إلا بعد أن نضجت عقليتهم ، وقد بلغ الشعر القريب من الإنشاء التاريخى مستوى عالياً بين الأمم المختلفة قبل أن تمارس كتابة التاريخ ، ففى الهند نظمت الرامايانا والمهابهاراتا قبل ظهور الأدب التاريخى ، وعند اليونان ظهر هوميروس قبل ظهور هيرودت بزمن طويل ، وظهر فى إيطاليا دانتى قبل ظهور جويكشياردينى ، ومكيافيلى ، وأظهر شكسبير براعة فائقة فى تصور الشخصيات والمواقف قبل أن يظهر عند الإنجليز مؤرخون يجيدون كتابة التاريخ ، ولم يستطع العقل فى الإقبال على الكتابة التاريخية أن يتخلص من قيود التقاليد وأغلال الأساطير

والأوهام والخرافات إلا بعد محاولات استغرقت زمناً ، وسارت فى بطء شديد .

تاريخ كتابة التاريخ :

يقول الأستاذ شوتول Shotwell فى كتابه عن تاريخ التاريخ إنه إلى وقت قريب كان ينقص التاريخ المؤرخون . فقد كتب تاريخ لكل شىء تحت الشمس — للأدب والفلسفة والفنون والعلوم — حتى السنوات القليلة الأخيرة — إذا استثنينا مؤلفات قليلة زهيدة القيمة — لم تكن قد كتبت قصة التاريخ » ، ويسترسل شوتول قائلاً فى دعابة : « وقد شغلت كليو — إلهة التاريخ — بكتابة ماضى الآخرين ، ولم تعن بكتابة تاريخها ، ولم يوجه إليها أحد السؤال عن ماضيها » .

كتابة التاريخ فى العهد القديم :

كتابة التاريخ بالمعنى المعروف اليوم كانت نادرة قليلة التقدم عند سكان الشرق الأوسط الأدنى ، واكتشاف الكتابة وبدء قياس الزمن جعلا من الممكن الاحتفاظ بوثائق فى المعابد وهى تحوى حوليات تاريخية ، وبرغم تقدم الحضارة فى مصر وفى أرض ما بين النهرين فإنها لم تخرج ما يستحق أن تسميه تاريخاً ، والملاحظات اليسيرة عن مغامرات

الفراعنة المصريين والقوائم القليلة الحاوية لأسماء الملوك التي حفظت كان باعثها جميعا الرغبة في إكبار شأن الفرعون الحاكم ، وذكر أحداث حياته ، وفي بابل أخذت الكتابة التاريخية صورة النقوش المرسومة على المباني ، وظهرت عند الأشوريين وثائق حوليات ملكية في تسلسل حولى مغامرات الحكام في الحرب والصيد والقيام ببناء بعض القصور ، ولم يظهر أثر للحاسة الناقدة في هذا التسجيل البدائي للتاريخ ، وكان الهدف المقصود من هذه النقوش تمجيد الملك الحاكم وإعلاء شأنه في نظر الأجيال التالية ، وكانت الحقائق التي تزرى به وتشوه ذكراه تحذف جميعها ولا يشار إليها ، وتغلب على تلك الوثائق والنقوش المبالغة والتهويل والروح الدينية ونسبة المباني المشيدة للآلهة .

ويرى الأستاذ بارنز Barnes أن الأحوال الجوية جعلت مصر متحفاً تاريخياً حقيقياً ، أو كما قال الأستاذ برستد Breasted « كتاباً تاريخياً ضخماً » وساعدت على حفظ مصادر وافية وقيمة للمعلومات التاريخية في مقابر الملوك والقصور والمعابد والآثار ، ولكن لم يبق من الكتابات التاريخية المصرية إلا القليل . ومنها ما كتبه أحد كتاب تحوتمس الثالث ، وقد وصف فيما كتبه غزوات هذا الملك الهمام الناهض العزم وصفاً جيداً . وحينما تأثرت الثقافة المصرية القديمة بالثقافة الهيلينية ظهر كاتب مصري هيليني الثقافة وجمع حوليات عن تاريخ مصر وكتب

سرداً تاريخياً كان له شأن على ما يبدو فى عصره ، وهذا الكاتب هو مانيتو Manatho وقد عرف هذا الكاتب بإجادة البحث ، وتحرى الموضوعية فى جمع المادة التاريخية وتفسيرها ، ومن دواعى الأسف أنه لم يبق من كتبه سوى مقتبسات قد شابتها الشوائب فى كتاب المؤرخ اليهودى يوسيفوس ، وفيما كتبه المؤرخان المسيحيان القديمان جولياس الأفريقى وايزيبيوس .

وقد تقدم البابليون والأشوريون على قدماء المصريين تقدماً قليلاً فى جمع الوثائق التاريخية ، ولكن لم يظهر بينهم مؤرخ من طراز مانيتو حتى تتأثر الحضارة البابلية بالحضارة الهيلينية ، فقد ظهر حين ذاك المؤرخ الكاهن بيروسوس Berossos وكتب تاريخ بابل فى القرن الذى كتب فيه نفسه مانيتو .

وأقدم الكتابات التاريخية الآسيوية هى الوثائق التى كتبها الكتاب السومريون ، ولكن لم يعثر بعد على سرد تاريخى منظم يمكن أن يعزى إليهم ، وقد جمع البابليون قوائم كثيرة بأسماء الملوك ، والملحوظ بوجه عام أن الوثائق التاريخية الخاصة بقدماء المصريين والبابليين والأشوريين لم تتجاوز أنساب الملوك ، وتسجيل الحملات الحربية ، والأماديح الموجهة إلى العواهل ، والملابسات الاجتماعية التى مهدت لظهور هذا اللون من ألوان التاريخ المملح غير الشائق لم تسمح بازدهار لون آخر من ألوان

التاريخ أرقى مستوى وأكثر أصالة . وازدهار فن كتابة التاريخ كان يستلزم جواً من الحرية تنمو فيه الملكات . وتتفتح المواهب . ولا يقتصر فيه التاريخ على تسجيل أخبار قلة من الملوك وأعيان الدولة ، وتدوين بعض الأحداث العامة منفصلة عن الأسباب التي مهدت لوقوعها والاكتفاء بالاقتصار على أخبار طبقة خاصة قليلة العدد مرهوبة السطوة ، وقد كانت الملوك فى نظر أنفسهم وفى نظر رعاياها آلهة تمشى على الأرض .

الصينيون وكتابة التاريخ :

يرى الأستاذ روبرت فلنت أن الصينيين تفوقوا على سائر الأمم الشرقية فى الأدب التاريخى ، وهو يعلل ذلك بشدة إحساسهم بحقائق الحياة ، وفرط احترامهم لأسلافهم ، وشدة تعلقهم بالماضى وحسن إدراكهم السياسى واعتدالهم فى إصدار الأحكام ، وبعدهم عن الاسترسال مع الخيال ، وتقديرهم العالى للمعرفة والثقافة وميلهم إلى الجد فى طلب العلم . وعند الصينيين عدد كبير من المؤرخين ، ومنذ ألفين وستمائة سنة على عهد ماجيدوكونت بلجنة فى العاصمة لتسجيل الأحداث التى قد تكون لها أهمية من الناحية القومية . والأدب الصينى حافل ضخم ، وهو يشتمل تواريخ أسر خاصة وملخصات حولية ومذكرات مختلفة الأنواع وتراجم وسيراً لا يكاد يحصيها العد ومدونات تاريخية ومعاجم تاريخية والجغرا

بالمعلومات ، وهى تتناول شتى العصور ومختلف جوانب الحياة ، وهى مكتوبة بأسلوب يرتضيه الذوق الصينى ، ويعد أسلوباً شائقاً ، ولكن الكتابة التاريخية برغم ذلك لم ترتفع عن مستوى الطريقة الحولية ، والمؤرخون الصينيون قد بذلوا جهداً فى جمع المعلومات واستقصاء الوقائع ، وتنسيقها ولكنهم لم يضعوها فى موازين النقد ، ولم يسبروا غورها ، ويستنبطوا دخائلها ، ولم يتابعوا التطور الجوهرى لأحداث التاريخ ، فالتاريخ عندهم تعوزه دقة العالم ، وشمول الفلسفة وإحاطتها ، ولم يستطع الصعود إلى وجهة نظر عامة ، وهم يتناولون التاريخ باعتباره فناً قوميًا نافعاً ، لا باعتباره مرآة تنعكس فيها الطبيعة البشرية ، وأبعد المؤرخين الصينيين شهرة هما سيزماتيان الذى ولد حوالى سنة ١٤٥ قبل الميلاد وسيريما كوانج الملقب بأمير المؤرخين ، وقد ذاعت شهرته فى القرن الحادى عشر ، وهذان المؤرخان ينتسبان إلى أسرة واحدة برغم تباعد تاريخ مولدهما ، وقد كتب الأول وثائق تاريخية تشمل كل ما له أهمية فى الحوليات الصينية منذ عهد هوانج تى — أى منذ ٢٦٩٧ قبل الميلاد — إلى العصر الذى عاش فيه ، واستقصى الآخر تاريخ الصين خلال ألف وثلثمائة واثنتين وستين سنة . وقد أضيفت إليه بعد ذلك إضافات أوصلت السرد التاريخى إلى القرن الثامن عشر ، وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغة الفرنسية .

اليابانيون وكتابة التاريخ :

وقد عنى اليابانيون بكتابة التاريخ مثل الصينيين ، ويرى المؤرخون اليابانيون أن الأسرة الملكية الحاكمة بدأ حكمها منذ القرن السادس قبل الميلاد ، وهى أقدم الأسر المالكة تاريخاً ، ومن المسائل التى لا تزال موضع خلاف ونقاش مسألة نشأة كتابة التاريخ اليابانية ، وهل كانت نتيجة حافز قومى أوكانت أثراً من آثار الاحتكاك بالصين ، ويرى المتخصصون الأوربيون فى الدراسات اليابانية أن كتابة التاريخ اليابانى الصحيح لا ترجع إلى أبعد من القرن السادس قبل الميلاد ، وقد جمعت أقدم الوثائق التاريخية اليابانية سنة سبعمائة واثنتى عشرة الميلادية فى كتاب ، وقد ترجم إلى اللغة الإنجليزية ، والحوليات اليابانية المسماة نيهونجى التى تمت سنة ٧٢٠ ميلادية يبدو فيها طابع التأثير الصينى ، وفى القرنين الثامن والتاسع اشتركت طائفة من الكتاب فى كتابة وثائق تاريخية ، وكان أنبه هؤلاء الكتاب ذكراً وأبرزهم أثراً المؤرخ سيجوارا ميشيزن ، ومن القرن العاشر الميلادى إلى القرن الثالث عشر حدث تطور ملحوظ فى كتابة التاريخ اليابانى ، واتسم بإحكام السرد وإجادة التفكير التاريخى ، وفى خلال العهد الإقطاعى ظهرت حوليات كثيرة ، ولكن قل ظهور المؤرخين الممتازين كما حدث فى عهد الإقطاع الأوربى ، وقرب

انتهاء ذلك العهد ظهر مؤلف تاريخى ضخم ذائع الصيت كتبه الأمير ميتو (١٦٢٢ — ١٧٠٠) وعاونه فى ذلك عدد من العلماء اليابانيين والعلماء الصينيين ، وقد شمل تاريخ اليابان حتى سنة ١٤١٣ وكان الغرض الذى رمى إليه الأمير بهذا المؤلف هو النيل من مكانة الشوجانات (وكان الشوجان هو القائد الأعلى للجيش اليابانى فى عهد الإقطاع) واعتبارهم مغتصبين للسلطة وإعلاء شأن الميكادو باعتباره المصدر الوحيد للسلطة الشرعية والحكم الصالح ، وقد كتب الكتاب بحذق وبراعة جعلته صالحاً لتحقيق هذا الغرض ، وهو يعد مصدر الحركة التى انتهت بثورة سنة ١٨٦٨ ، وأول مؤرخ يابانى صعد بالتاريخ إلى المرتبة العلمية هو هاكيسيكى (١٦٥٧ — ١٧٢٥) ويعده اليابانيون أعظم مؤرخيهم أصالة ، وأوسعهم إحاطة ، ومن كبار مؤرخى اليابان رابى سانجو (١٧٨٠ — ١٨٣٣) وقد عرف بنفاذ بصيرته ، وسداد مذهبه ، وقدرته الناقدة ، والمقتطفات التى ترجمت من مؤلفاته تدل على أنه كان يجيد تصوير الأحداث ويحسن عرضها ، وظهر فى اليابان الحديثة مؤرخون لهم وزنهم مثل موتورى نوريناجا (١٧٣٠ — ١٨٠١) وهيرانا اسيتانى (١٧٧٦ — ١٨٤٣) ومن مميزات الأدب اليابانى كثرة الروايات اليابانية التاريخية ، وكثير منها يرجع تاريخه إلى القرن العاشر والقرن الحادى عشر.

الهند وكتابة التاريخ :

تمتاز الهند بتراثها الأدبى ، فالشعر الهندى والفلسفة الهندية من أسمى طراز وأجل الآثار ، ولكن كثرة امتزاج الشعوب والسلالات فى الهند منذ القدم وعدم وجود وحدة سياسية تجمع شملها ، وتزيل أسباب الخلاف والتنافر فى العادات والتقاليد واللغة ، لم يساعدا على ظهور الكتابة التاريخية ، ولذلك ليس للهندوس تاريخ قومى مكتوب ، وقد استطاع الهنود أن يعبروا عن أفكارهم وخوالج نفوسهم فى الكتب المسماة « فيدا » ، وهى تتضمن وصف الحياة الاجتماعية لطائفة الهنود الآريين وآرائهم فى الله والكون والإنسان ، وفى الملاحم العظيمة مثل المهابهاراتا والرامايانا والبورانا ومجموعة الحكم والأمثال المسماة سوترا ، ولكنهم لم يعنوا بتدوين أخبار الحياة الاجتماعية ، والأحداث الخارجية العادية ، ويجد الباحثون صعوبات جمة فى استخلاص الحقائق التاريخية من المنظومات الشعرية الهندية ، وأقدم مؤلفات هندية يمكن إلحاقها بالأدب التاريخى لا ترجع إلى أبعد من القرن الحادى عشر الميلادى ، وهى مع ذلك لا تخلو من الشوائب ، وأشهرها كتاب « ملوك كاشميرا » وتغلب عليه الروح الشعرية والنزعة الأسطورية ، والأدب التاريخى الهندى نزر المادة هين الشأن .

اليهود وكتابة التاريخ :

يقول الأستاذ بارنز فى كتابه عن « أصول الكتابة التاريخية » [١] إن شرف إخراج أول سرد تاريخى حق متسع المجال ويحظى بنسبة عالية من الدقة يلزم أن يعزى إلى يهود فلسطين القديمة » ، ومعظم هذه الكتابات اليهودية التاريخية قد احتواها الكتاب المقدس ، وفى عهد الإمبراطورية الرومانية المتأخر أبدى بعض آباء الكنيسة الذين يميلون أكثر من غيرهم إلى التشكك ، شكوكهم فى صحة أفكار معينة تقليدية عن تأليف الكتاب المقدس ، ولكن أول دارس أثار مسائل على جانب كبير من الأهمية من ناحية الآراء التقليدية كان عالم العهد الوسيط ابن عزرا الذى تحدى فى سنة ١١٥٠ ميلادية فكرة تأليف موسى للأسفار الخمسة . وفى القرن السابع عشر أبدى الفيلسوف الناقد الشهير توماس هوبز شكه رأيه فى تأليف موسى للأسفار على أساس اعتبارات منطقية ومفاهيم الإدراك العام لا على أساس الدراسة التاريخية للنصوص . وأشار إلى أنه من المألوف ألا يشير مؤلفه وهو يكتب سيرته الذاتية إلى موته ، ويفخر بأنه قد أحسن دفنه إلى حد أنه لم يستطع أحد لمدة سنوات عدة أن يعرف موضع قبره ، وبرغم ذلك فإن الأسفار الخمسة تروى بالتفصيل حادث النبى الملم باليهود بعد

(١) ص ١٩ من كتاب « أصول الكتابة التاريخية » .

موته ، وقد بدأ العالم اليهودى باروخ أسبنوزا — وكان معاصراً لهوبز ولكنه أصغر منه سنّا — الدراسة النقدية الحق لأصول سفر التكوين ، وأظهر أن هذا السفر لا يمكن أن يكون كاتبه مؤلفاً واحداً فى أى وقت واحد ، وقدم الدليل الذى ينقض نظرية تأليف موسى للأسفار الخمسة » . ويذكر بارنز أن الباحثين المحدثين مثل دليتزس وونكلر وروجرز قد أظهروا تأثير الأساطير البابلية والتقاليد الدينية فى الديانة اليهودية ، وبخاصة فى اقتباس قصة الخليقة وبرج بابل والطوفان ، إلى ذلك من العقائد والأساطير البابلية ، كما أشار غيرهم من الباحثين إلى الأسس الفارسية فى اقتباس فكرة الجحيم والشيطان وخلود الروح .

ويقول بارنز (١) «كان الرخاء العظيم الرحب الذى استمتع به اليهود والمكانة التى ظفروا بها فى ظل ملوك المملكة المتحدة فى عهد شاول وداود وسليمان من البواعث الحافزة على كتابة التاريخ » وأقدم محاولاتهم للكتابة التاريخية عهدا هى المحاولة التى قام بها كتاب مجهولون بكتابة أصول الأسفار الخمسة . وسفر يشوع . وسفر صموئيل الأول والثانى . وسفر الملوك الأول . ويقول المؤرخ الأستاذ برستيد «إن هذه الأسفار هى أقدم ما تملك من الكتابات التاريخية عند أى قوم من الأقوام . ومؤلفها المجهول هو أقدم مؤرخ وجدناه فى العالم القديم» .

(١) ص ٢٢ من كتاب «أصول الكتابة التاريخية» .

ويقول إدواردمبير « مما يثير الدهشة أن يوجد أدب تاريخى من هذا الطراز فى ذلك الوقت عند إسرائيل ، وهو يسمو على كل ما نعرفه عند غيرهم من الكتابات التاريخية الشرقية القديمة » ، ويعد من الطرائف التاريخية البارزة « تاريخ داود الذى كتبه باللغة العبرية الكاهن الأعلى أبياثار ، وآخر المؤرخين اليهود القدامى البارزين هو فلافيوس يوسيفوس (٣٧ — ١٠٥) ميلاديه وهو مؤرخ اليهود القومى وكتب أكثر ما كتبه بعد فقد اليهود وحدتهم وسقوط دولتهم ، وقد حاول أن يهون الأسى الذى خالج نفوس اليهود بإعادة ذكرى أمجادهم السالفة ، ولذلك عمد إلى المبالغة فى الإشادة بماضى اليهود .

ويلاحظ الأستاذ روبرت فلنت أن اليهود كانوا ينظرون إلى الأحداث من وجهة نظر دينية ، وكان الله فى رأيهم هو العامل المحرك الأسمى للتاريخ ، وأن إرادته هى محك الحكم التاريخى ، وأن مملكته هى الغاية التى يتجه إليها التطور التاريخى ، ولم يمنعهم ذلك من إجادة تصوير الطبيعة البشرية فى أسلوب يجمع بين البساطة والوضوح والقوة ، وقد عرف اليهود بشدة اعتزازهم بماضيهم وإكبارهم لتاريخهم ، وتاريخهم بطبيعة الحال عسلوج من عساليج شجرة التاريخ العام ، ولكنهم يرون أن هذا العسلوج أجل شأناً من الشجرة التى تفرع منها .

كتابة التاريخ عند اليونان والرومان :

الرأى القائل إن أول كتابة تاريخية ذات شأن ظهرت عند اليونانيين كانت فى الأشعار المنسوبة إلى هوميروس له أساس من الواقع . وفى أشعار هوميروس معلومات وافرة عن المجتمع اليونانى والثقافة اليونانية . ويمكن تكوين صورة واضحة لحضارة عصره من الاطلاع على أشعاره .

ولكن ميلاد الكتابة التاريخية اليونانية على النمط فى كتابة التاريخ كان يستلزم خلفية تاريخية لم يتيسر ظهورها عند اليونان إلا فى القرن السادس قبل الميلاد ، وهذه الخلفية هى ظهور الكتابة النثرية والنظرة الناقدة إلى الأساطير الشائعة ، وبواعث الاهتمام بالبحث عن أصول المجتمع ونشأة النظم والقوانين والعادات والتقاليد .

وفى منتصف القرن السادس قبل الميلاد توفرت هذه المستلزمات للسرد التاريخى فى مدينة ميليتس فى أيونيا بآسيا الصغرى ، ففى مطلع القرن السادس قبل الميلاد كان كادموس المليتى قد بدأ ممارسة الكتابة النثرية بدلاً من الكتابة الشعرية ، وهو يعد فى طليعة الكتاب الناثرين فى الأدب اليونانى ، وفى الوقت نفسه بدأ ظهور الفلسفة الأيونية التى وضعت أصول التفكير الحر وشجعت على النقد . وفى ذلك يقول الأستاذ برى[١]

(١) ص ٢٣ من كتاب «تاريخ حرية الفكر» .

«كانت أيونيا فى آسيا الصغرى مهد التفكير الحر ، وتاريخ العلم الأوربى وتاريخ الفلسفة الأوربية يبدأان فى أيونيا . فهناك فى القرن السادس قبل الميلاد والقرن الخامس حاول الفلاسفة الأوائل أن يصلوا بطريق العقل إلى أصل العالم وتكوينه ، ولم يستطيعوا بطبيعة الحال أن يحرروا عقولهم تحريراً تاماً من الأفكار التى تلقوها ، ولكنهم بدءوا عملية هدم الآراء المحافظة والمعتقدات الدينية » .

وكان لحركة إنشاء المستعمرات والتبادل التجارى والسفر فى الشرق أثرها فى تقدم الحضارة اليونانية فى أيونيا وبحر إيجه وإنماء الروح الناقدة فى اليونان الأيونيين ، وهذه الروح الناقدة كانت هى التى ساعدت على تقدم الفلسفة والأدب والكتابة التاريخية ، واحتكاك الثقافات يثير حب الاستطلاع ، ويحفز إلى التفكير ، وينمى العقل ، ومما له دلالته أن هيكاتيوس أول المؤرخين اليونانيين ، كان رجل أسفار ، وجوابة أقطار ، (وقد ولد سنة ٥٥٠ قبل الميلاد)

وحينما استولى الفرس على أيونيا ازداد الاقتراب بين اليونان الأيونيين والثقافات المجاورة لهم ، وأثار ذلك اهتمام اليونان الأيونيين بدراسة مختلف الأقوام الذين يعيشون فى داخل نطاق الإمبراطورية التى أصبحوا جزءاً منها .

فنشوء الكتابة التاريخية الحق كان إذن جزءاً من الحركة الفلسفية التى

بدأت فى أيونيا ، ويضاف إلى ذلك عامل شخصى خاص ، كان باعثه الرغبة الشديدة التى استولت على بعض المواطنين البارزين فى ذلك العصر ليقدموا إلى أسرهم سلاسل أنسابهم الوضاحة فى نظرهم ، وقد تقرب الشاعر اليونانى هسيود إلى آلهة اليونان بتقديم سلاسل أنسابهم الشريفة ، ورأى كتاب التاريخ أن يقوموا بمثل هذا التمجيد للأسر الحريصة على إثبات عراقة الأصل وشرف النسب .

وشد من أزر عامل الاهتمام بتحرى الأنساب الميل إلى العناية بالجغرافيا ودراسة أخلاق الشعوب المختلفة وعاداتها وتقاليدها وسائر أحوالها الاجتماعية والثقافية والتاريخية . ولذلك يغلب فى الكتابة التاريخية عند اليونان الوصف الجغرافى والإسهاب فى الحديث عن مختلف جوانب الحياة الاجتماعية للأمم التى يرد ذكرها ، وتسرد أخبارها .

وقد مهدت الأحوال المذكورة لظهور المؤرخ هيكاتيوس الميليتى ، وهو من مدينة ميليتس التى نشأ بها النثر اليونانى والفلسفة اليونانية الناقدة ، وتستبين أهمية تأثيرها عند هيكاتيوس فى مسألتين كان لهما صدى فى البحوث التاريخية التالية ، فهو قد بدأ الكتابة العلمية للتاريخ بتجربة الحقيقة فى المعلومات التى أوردها ، والمسألة الأخرى هى موقفه الناقد من الأساطير المتداولة ، وقد استهل كتابه بقوله :

«ما أكتبه هنا تقرير وبيان لما أعده حقاً ، وذلك لأن الأقاصيص

اليونانية كثيرة ، وفى رأيى أنها تدعو إلى السخرية » .

واتسع نطلق الحركة الفكرية التى حفزت هيكاتيوس على تأليف « الأنساب » ، وفى الفترة ما بين ظهور كتاب « الأنساب » وكتاب « التاريخ » الذى كتبه هيرودوت جمع كارون اللاميسكوسى وديونيزياس الميليتى تاريخ فارس فى خلال منتصف القرن الخامس قبل الميلاد ، وكتب سكايلاكس الكرياندى أول سيرة تاريخية ، وفى الجزء الأخير من القرن الخامس كتب أنطيوكس السراقوسى تاريخ اليونان ، ومهد هيلانيكاس الليسبوسي السبيل لظهور هيرودوت بكثرة اهتماماته وسعة إحاطته ، فلم يقتصر على تناول تاريخ الفرس واليونانيين من وجهة نظر اجتماعية رحبة ، بل كان كذلك فى طليعة المؤرخين اليونانيين الذين قدروا الحاجة الماسة إلى إيجاد نظام تقويمى شامل ، وقد حاول هيرودوت بنجاح نسبى أن يبدأ ذلك .

وأول مؤلف تاريخى شامل تولى تفصيل العلاقات بين اليونان وآسيا من عهد كروشيوش ملك ليديا (٥٦٠ — ٥٤٦) — قبل الميلاد إلى هزيمة الفرس سنة ٤٧٨ قبل الميلاد هو كتاب هيرودوت ، وقد أثارت الحروب الفارسية اهتمام اليونانيين بحضارات الشرق الأوسط ، ولذلك كان المؤرخ الذى يتصدى لوصف الحضارات الشرقية ويقرن ذلك بالحديث عن موقف اليونانيين فى رد غارة الفرس ، يثق الثقة كلها بأن ما يكتبه سيلقى

إقبالاً شديداً واهتماماً عظيماً ، وقد اغتنم هيرودوت — الهاليكارناسوسى (٤٨٤ — ٤٢٥ ق . م) هذه الفرصة ، ولم يكن هيرودوت معنيًا بتاريخ الأقوام المتحضرين فحسب ، بل كان كذلك حريصاً على الوقوف على أخبار الأقوام المتخلفين وعاداتهم وتقاليدهم ، وهو لذلك لا يعد أباً للتاريخ فحسب ، بل يعد كذلك أبا لعلم التاريخ الطبيعى للأجناس البشرية (الأنتروبولوجى) .

وكان هيرودوت رحالة مطبوعاً على حب الاستطلاع والحرص على التزود من المعرفة ، وكان يسأل ويستفسر ويجمع المعلومات والأخبار بمختلف الوسائل والسبل ، ويحاول أن يتعرف العادات والتقاليد والعقائد والأديان والقوانين والنظم ، ولا يكاد يفلت من اهتمامه الفاحص ونظرته الشاملة شيء ، وبقوة عبقريته استطاع أن يضمن كتابه كل ما رآه بعينيه وسمعه بأذنيه ، في أسلوب جذاب ، وعرض شائق ، مما جعل كتابه من طرائف كتب التاريخ الخالدة ..

والموضوع الرئيس فى كتاب هيرودوت هو الحروب الفارسية وبخاصة القضاء على حملة إكسركسيس ، ولكن المعلومات التى جمعها حول هذا الموضوع رجحت أهميتها وعظمت فوائدها ، وقد أخذ عليه تقصيره فى وصف المعارك الحربية ، وقلة عنايته فى تحقيق تفاصيل المعارك التى دارت بين الفرس واليونان ، ولكن من مزاياه البارزة أن عاطفته القومية لم تتغلب

على أحكامه . وأنه أنصف الفرس وأقر لهم بالشجاعة والإقدام . وقد عرضه ذلك لنقد اليونانيين الشديدى التعصب لقوميتهم .

وكانت الحرب الفارسية اليونانية فى رأى هيرودوت تمثل تصادم طرازين من طراز الحضارة . وهما الحضارة الهيلينية والحضارة الشرقية . ولذلك عمد إلى تحليل عناصر هاتين الحضارتين . وقد دعاه ذلك إلى وصف أحوال سكان الجانب الغربى من البحر الأبيض المتوسط والعالم الآسيوى فى القرنين السادس والخامس وصفاً شائقاً ممتعاً . تناول فيه الأحوال الاجتماعية والثقافية . ويمتاز وصفه بالنزاهة التامة والتخلص من التعصب الجنسى أو الإقليمى . وقد تهم بأنه كان فريسة لسرعة التصديق وإلقاء الكلام على عواهنه . ولكن البحوث الأثرية الحديثة أكدت صدق الكثير من أقاصيصه الطلية وأوصافه الإخبارية المعجبة . وكان يفرق دائماً بين ما رآه بنفسه وما يعتقده . وبين ما يرويه من الحكايات السائدة والأخبار المتداولة . وقد وصفه الأستاذ شوتول بأنه « هوميروس الحرب الفارسية » . والواقع أن كتابه إلى حد ما كان ملحمة نثرية .

وكان هيرودوت شديد الإعجاب بالديمقراطية اليونانية . ومع تقديره لشجاعة الفرس فإنه أظهر إيثاره لانتصار أثينا على أوتقراطية الإمبريالية الفارسية . ويبدو فى كتابه تأثره بفكرة تدخل الآلهة فى الشئون الإنسانية ، ويظهر من حين إلى الحين فى كتابه صدى اعتقاده بوجود أسباب تسمو على

الطبيعة فى الأحداث التاريخية ، ومهما يكن من الأمر فإن مكانته بوصفه مؤرخاً فناناً قدم أروع النماذج للسرد التاريخى المتألق الشائق والحى النابض فوق متناول الشكوك .

ومن معاصرى هيرودوت توكوتيدس ، وهو يصغره ببضع سنوات ، ولكن حينما يوازن مؤلفه فى التاريخ بما كتبه هيرودوت يبدو وكأنه عاش فى عصر مختلف . ويعد توكوتيدس (٤٥٦ – ٣٩٦ ق . م) المؤرخ اليونانى الكبير الثانى بعد هيرودوت ، وقد تناول التاريخ بطريقة مخالفة لطريقة هيرودوت ، وآثر الجدية فى البحث على ترصيع كتابه بالقصص المسلية ، والطرائف الممتعة ، وتشدد فى استبعاد الأساطير والخرافات التى كان هيرودوت يميل إلى الإكثار منها ويجد متعة فى روايتها ، ووضع توكوتيدس بذلك حداً فاصلا فى كتابة التاريخ بين المنهج الملحمى والتأثر بالاعتقاد بما فوق الطبيعة وبين الكتابة التاريخية التى تقوم على تمحيص الحقائق واستقصاء الأسباب المعقولة للأحداث والعلل الدنيوية ، وأعرض عن الاستطرادات التى كان هيرودوت كثيراً ما يشبع رغبته بانتزاع المناسبات وتصيد الأسباب لينجرف إليها وينغمس فيها ، وقد اختار لنفسه موضوعاً محدد المعالم ، وجمع المواد الملائمة لطبيعة موضوعه والشديدة الصلة بحقيقته .

والموضوع الرئيس الذى اختاره توكوتيدس هو الحرب البلبونيسية

(٤٣١ – ٤٠٤ ق م) ومجالها أقل اتساعاً من المجال الذى اختاره هيرودوت ، وقد أعد توكوتيدس كتابه فى عهد نشوب الحرب ووقوع الصدام مما جعل أوجه شبه بين كتابه وبين ما يكتبه المراسلون الحربيون المثقفون فى العصر الراهن ، ويقول الأستاذ بارنز [1] « إن الصورة الموجزة التى قدم بها فى كتابه ارتقاء بلاد اليونان من حكومات المدن إلى الإمبراطورية الأثينية تبين أن توكوتيدس كانت له قدرة نادرة على تصوير الماضى لو أنه وجد ذلك مناسباً ، ولكن كتابه العظيم كان قبل كل شىء تاريخاً معاصراً بعينه لأنه هو نفسه كان قائداً أثينياً وسياسياً » .

وقد أظهر توكوتيدس أن أهمية الكتب التاريخية متوقفة على دقة المعلومات وصحتها أكثر مما هى متوقفة على العرض الجذاب ، ولم يكن المؤرخ الألمانى الشهير ليبولدفون رانك فى أوائل القرن التاسع عشر أكثر تحمساً لتحرى الحقائق فى كتابة التاريخ من توكوتيدس عند انقضاء القرن الخامس قبل الميلاد ، وهو فى تماسك أسلوبه واكتفائه بالتفاصيل الوثيقة الصلة بموضوعه يعد فى طليعة أولئك الداعين إلى التزام المنهج العلمى فى كتابة التاريخ ، وقوام هذا المذهب أن الدقة فى تمحيص المادة التاريخية التى يجمعها المؤرخ هى أساس الكتابة التاريخية الحق . وهو من القائلين بفائدة الكتابة التاريخية ، لأن من رأيه أن المعرفة الوافية الدقيقة لما حدث

---

(١) ص ٣٠ من كتاب تاريخ الكتابة التاريخية

نافعة ، لأنه من المرجح احتمال وقوع أحداث شبيهة لما سبق أن حدث .

ولم يكن توكوتيدس يكتفى بنقد المراجع ، وشدة العناية بفحص الوثائق والأصول ، وإنما كان كذلك بارعاً فى تنسيق المواد التى يجمعها وتفسيرها ، وحقيقة أنه كان ينظر إلى التاريخ من الناحية السياسية ، ولكنه كان كالسياسى الفيلسوف فى ربطه بين المشكلات التاريخية والأسباب السياسية وإلمامه بالأسباب المباشرة والأسباب البعيدة ، كما أنه امتاز بقدرته السيكلوجية على تفهم نفسية الأفراد والجماعات ، ويستبين ذلك فى قدرته على إبراز صور واضحة للشخصيات التى تحدث عنها وتحليله للرأى العام الأثينى فى مواقف مختلفة مثل ثورة سنة ٤١١ ق . م ، وهو علاوة على ذلك كله كاتب فنان ، وبرغم استغراقه فى مراجعة الوثائق وجمع المعلومات الشفويـة وتقليبها على وجوهها فإنه كان يستطيع بعد ذلك أن يجيد عرضها ، ويقول عنه العلامة روبرت فلنت[1] « إن تصويره فى صورة الملحد أو اللاديني لا يوجد عليه دليل ، ولكن من الواضح أنه كان قد صمم على ألا يسمح لأى معتقد دينى كان لا يزال مستمسكاً به أن يلون رؤيته التاريخية أو يؤثر فى أحكامه التاريخية ، وإنما كان يريد أن يكتب تاريخاً صحيحاً حقاً ، ولذلك اختار لدراسته ميداناً واضح الحدود يستطيع أن يكشف نواحيه كشفاً دقيقاً ، ويستطيع فيه أن

(١) ص ٥٢ من كتاب « تاريخ فلسفة التاريخ »

يظفر بالحق وهو واثق » ، وقد نسب إلى بعض الأشخاص أحاديث وخطباً لم تصدر كلها أو جانب كبير منها ممن نسبت إليهم ، ولعل عذره فى ذلك أن هذه الأحاديث والخطب كانت فى رأيه وسيلة لفهم التاريخ ، وأنها كانت شبيهة وقريبة مما جرت العادة بصدورها منهم ، وليس فى أسلوبه عذوبة أسلوب هيرودوت وسلاسته ، ولكنه يمتاز بالقوة والمتانة والبراءة من الحشو والتزيد ، وقد عيب عليه أنه لم يقدر أهمية العوامل الجغرافية فى المواقف التاريخية وأنه أغفل تأثير القوى الثقافية والاجتماعية والاقتصادية فى سير التاريخ .

وآخر المؤرخين اليونانيين هو بوليبيوس (١٩٨ – ١١٧ ق . م) وهو نظير توكوتيدس فى تحرى الدقة العلمية ، ولكن أسلوبه ليس واضحاً سلساً أو مركزاً مثل أسلوب هيرودوت أو توكوتيدس ، وكان ذلك من دواعى أن القراء لم يقبلوا على قراءته إقبالهم على قراءة الاثنين الآخرين ، وتاريخه محاولة لتناول امتداد الإمبراطورية الرومانية وتطور نظامها السياسى حتى سنة ١٤٦ ق . م فى أربعين جزءاً ، وكان أكثر تأكيداً من توكوتيدس لمسألة أن المؤرخ المؤهل لكتابة التاريخ لابد أن يكون من كبار رجال الأعمال ، ويفضل أن يكون قائداً أو رجل دولة

وقد أظهر هيرودوت اهتمام المؤرخين اليونانيين بالشرق ، وعرض توكوتيدس لتاريخ علاقات أثينا الخارجية وهى فى أوج حضارتها ، أما

بوليبيوس فإنه يعكس صورة اليونان فى حالة تخلفهم وتدهور مكانتهم وانتقال الاهتمام إلى السيطرة الرومانية فى الغرب .

وهو يونانى الأصل ولكنه قضى معظم حياته فى روما ، وقد مكنه ذلك من أن يكون أقرب إلى النزاهة فى كتابة تاريخ الرومان واليونان ، وقد رمى إلى إظهار صعود روما إلى ذروة السيطرة والنفوذ ، ويعد الجزء السادس من كتابه خير تحليل للمثل العليا السياسية الرومانية وأساليب الرومان فى الحرب ، وقد رأى أن العبقرية السياسية الرومانية قد تجلت فى اتخاذ نظام للحكم يجمع بين النظام الملكى والنظام الأرستقراطى والنظام الديمقراطى ، وهو يرى أن الرومان استطاعوا بهذا المزج بين نظم الحكم الثلاثة أن يتجنبوا الخضوع لتلك الحركة الدائرة ، حركة الانتقال من الحكم الملكى إلى الحكم الاستبدادى والحكم الأرستقراطى الذى يتولى كبره الأعيان والحكم الديمقراطى الذى يسفر عن حكم الغوغاء والدهماء ثم تعيد الدائرة دورتها ، وكان بوليبيوس نافذ الرأى فى الحكم على السياسات ودارساً متعمقاً للأحداث والشخصيات ، وتصويره لبعض الشخصيات التاريخية المشهورة مثل هانيبال يعد من طرائف فن التصوير التاريخى ، وكان يؤكد قيمة المعرفة الجغرافية فى استجلاء حقائق التاريخ وتقلباته ، والتاريخ فى نظره من الدراسات النافعة لأنه كما قيل بعد عهده : « فلسفة تعلم بطريق تقديم المثل » ، ومعرفة الحقائق التاريخية

المؤكدة قد تعين فى تنظيم إدارة الحكم وتوجيه الأحوال العامة ، وحل المشكلات العارضة ، وتفريج الأزمات المفاجئة ، وقد عنى بمسألة السببية فى الأحداث التاريخية ، وكان أكثر تعمقاً من توكوتيدس فى تحليل الأسباب غير الشخصية المؤثرة فى حركات التاريخ ، ولو أن تفسيره كان يغلب عليه الناحية الأخلاقية أكثر من تغليب الناحية الاقتصادية أو الاجتماعية .

وزينوفون (٤٣٠ – ٣٥٤ ق . م) من مشاهير المؤرخين اليونانيين ، ولكنه ليس من نظراء هيرودوت وتوكوتيدس وبوليبيوس ، وكانت له مواهب أدبية ممتازة ، ولكن قدرته على التحليل التاريخى العميق محدودة ، ويقول عنه الأستاذ برى [1] «إنه لو كان قد عاش فى العصر الحديث لكان صحفيا من طراز رفيع ومؤلف كتيبات ، ولكان قد جمع مالاً باعتباره مراسلاً حربيا ، وكتب حياة بعض الأبطال العادين من طراز أجيزيليوس» .

وكان يجيد كتابة المذكرات وكتابه عن اجيزيليوس يعد أحسن التراجم التاريخية فى الأدب اليونانى .

ومن المؤرخين اليونانيين الذين تخصصوا فى كتابة التراجم فلوطارخس ([illegible] م) ، ويعد كتابه من أشهر كتب التراجم العالمية ، وإن لم

---

(١) ص ١٥٤ من كتاب «المؤرخون اليونانيون القدامى» .

يكن فى المكانة العالية من ناحية صحة المعلومات التاريخية ، وعلينا أن نذكر أن فلوطارخس كان معنيا بالناحية الأخلاقية ، وأنه كتب تراجمه لتبرير مبادئه الأخلاقية ، لا لتكون تراجم تاريخية قد روعيت فيها الدقة فى إيراد الأخبار .

وفى عهد إحياء الثقافة اليونانية فى روما ظهر المؤرخ اليونانى أريان (٩٥- ١٧٥ ميلادية) وهو مؤلف كتاب «حياة الإسكندر المقدونى» والمؤرخ أبيان مؤلف كتاب «تاريخ روما» فى العصر نفسه .

الرومان وكتابة التاريخ :

لم يضف الرومان للأدب التاريخى إضافات مبتكرة ، وذهبوا فى العناية بالتاريخ مذهب اليونان ، وقد اتخذوا الكتاب اليونانيين أمثلة وقدوة لهم فى سائر نواحى الثقافة ومختلف فنون الأدب ، وقد ظهر بين الرومان مؤرخون لهم مكانتهم ، ولكنهم لم يبلغوا مستوى توكوتيدس أو بوليبيوس فى تحرى الدقة ، وإخضاع المراجع للنقد الصارم والنظر الفاحص ، ولم يستطع مساماة خير المؤرخين اليونانيين أسلوباً سوى المؤرخين الرومانيين ليفيوس وتاسيتوس .

وأول ظاهرة توضح اعتماد الرومانيين المباشر فى كتابة التاريخ على المؤرخين اليونانيين - أن الأدب الرومانى التاريخى ظل يكتب باللغة

اليونانية حتى القرن الثانى الميلادى ، وكان معظم هذه المؤلفات التاريخية المكتوبة باللغة اليونانية حوليات ، وكان أقدمها وأشهرها حوليات فابيوس بكتور (المولود سنة ٢٥٤ ق . م) وكان أول كتاب أشير فيه إلى أسطورة أصل روما الطروادى – الحوليات التى كتبها الشاعر إيناس (المتوفى سنة ١٦٩ ق . م) وكان أول مؤرخ كبير يبرز من صفوف الرومان هو زعيم الرومانيين جميعاً فى القدرة والكفاية يوليوس قيصر «١٠٠ – ٤٤ ق . م» وما كتبه عن الحروب فى بلاد الغالة والحرب الداخلية يعد خير ما كتب من المذكرات فى العالم القديم ، ويمتاز بنصاعة الأسلوب وقوته وبلاغته ، وهو بالتزامه كبح النفس والترفق والاعتدال فى سرد الأحداث وتصوير الواقع بحسن غرض قصيته ، ويكشف عن عبقريته المتعددة الجوانب ، وأهمية ما كتبه عن بلاد الغالة لا تقل أهميته فى تزويدنا بالمعلومات عما كتبه تاسيتوس فى كتابه «جرمانيا» .

ومن أشهر المؤرخين الرومانيين سلوستوس (٨٦ – ٣٤ ميلادية) وكتابه عن تاريخ روما من سنة ٧٨ إلى سنة ٦٧ لم يعثر عليه ، ولكن ما كتبه عن مؤامرة كاتلين وعن البطل الإفريقى يوجورتا يدل على براعة أسلوبه ، وقدرته الفائقة على تصوير الشخصيات .

ومؤرخ تاريخ روما القومى العظيم هو تيتوس ليفيوس (٥٩ ق . م – ١٧ ميلادية) وهو يعد من أعظم رواة الأقاصيص فى الأدب العالمى ،

وكتابه ملحمة نثرية رائعة ضخمة عن نمو الدولة الرومانية وبسط سلطانها على أنحاء العالم القديم . وكان يقدر قيمة الدقة فى تمحيص الوقائع التاريخية ، ولكن الحرص على التأنق فى الأسلوب وتجميل العرض كانا أكثر استيلاء على نفسه ، وكان ينزع فى كتابته إلى تمجيد روما ، والإشادة بها ، ويترضى الكبرياء القومية ، ليثير فى نفوس الشبان الرومانيين الشعور القومى ، والحماسة الوطنية ، وكان تدينه لا يكاد يقل عن وطنيته ، ولذلك أعاد فى كتابته التاريخية تدخل ما فوق الطبيعة فى الأحداث العارمة وأكثر من إظهار أثر الآلهة فى سير التاريخ ، وكان قليل العناية فى مراجعته للأصول التى يستمد منها ، ويعتمد عليها بتنقيتها من شوائب الخرافات ، وبقايا التقاليد العالقة ، وما كتبه بوجه خاص عن نشأة روما لا يمكن الاعتماد عليه ، والأخذ به ، فقد ملأه بالأساطير وأعاجيب القصص والخرافات والفرق كبير بين كتابته للتاريخ والمنهج العلمى الذى آثره مؤرخ مثل يوليبيوس .

ويرى الأستاذ بارنز أن ليفيوس لم يكن شخصيا شديد الإيمان بالخرافات والأساطير كما يبدو ، وكان يعترف أن مصادر التاريخ الرومانى القديمة غير جديرة بالثقة بها والاعتماد عليها ، ولكنه برغم ذلك كان يتقبل ما ترويه من الأخبار لأنه كان يرى أنها إن كانت لا تستحق التقدير من الناحية العلمية فإنها صالحة ونافعة من الناحية الأدبية وناحية

الدعاية القومية ، وكان هذا هو ما يقصده بكتابته التاريخية .

وكان آخر المؤرخين الرومانيين الكبار بوبليوس كورنيليوس تاسيتوس (٥٥ – ١٢٠ ميلادية) وكان مثل توكوتيدس وبوليبيوس من رجال الأعمال ، وقد عرف بمتانة أسلوبه وبلاغته وإشراق ديباجته ، وقدرته الفائقة فى تصوير الشخصيات ، وكانت تغلب عليه مراعاة الدقة فى تحرى ما يروى من الأحداث ، ولكن تغلب على كتابته الدعاية الأخلاقية ، والاكتفاء فى تعليل الأحداث بالأسباب الأخلاقية .

وأشهر كتبه التاريخية هى الحوليات التى تناول فيها تاريخ الفترة منذ وفاة القيصر أغسطس إلى سنة ٦٩ ميلادية ، وكتاب التواريخ ويبدأ من الأزمة السياسية التى حدثت سنة ٦٩ ميلادية ويشمل عهد الأباطرة الفلافيين ، وهو فى كتابته للتاريخ أقرب إلى النزعة العلمية من ليفيوس وأكثر منه عناية بتحقيق الأحداث ، ولكن لم يكن له نزاهة بوليبيوس فى الحكم على الحوادث ، وقد أغراه بذلك تحامله على الإمبراطورية وميله إلى طريقة العرض الدرامى ، وكان يميل إلى النظم الجمهورية القديمة ، مع علمه بأن ضعف الجمهورية كان أقوى أسباب القضاء عليها ، وهو فى تصويره للشخصيات وتحليله للمؤامرات السياسية فى طليعة قدامى المؤرخين ، وتصويره لشخصية تيبيريوس لا نظير له فى الكتابات التاريخية القديمة .

وسيتونيوس ترانكويلوس هو آخر المشاهير من المؤرخين الرومانيين (٧٥ - ١٦٠ ميلادية) وكان متصلاً بالإمبراطور هادريان ، وقد عمل سكرتيراً له حيناً من الزمن ، وكتابه المعروف هو «حياة القياصرة الاثنى عشر» وهو وإن كان مرجعاً يمكن الاعتماد عليه فى وصف الحياة العامة - من أقدم الأمثلة للكتابة التاريخية التى يقصد بها كشف العيوب الأخلاقية ، والنقائص الخفية ، وهو حافل بالأقاصيص التى تدور حول حياة الأباطرة الرومانيين من عهد أغسطس إلى عهد الأباطرة الفلافيين ، وهو لا يخلو من معلومات طريفة عن الأباطرة الذين تناول ذكرهم فى أسلوب سهل واضح لا يعتمد على الأساليب البلاغية التى كانت شائعة فى عصره ، وإنما يترك الحقائق تتحدث عن نفسها ، ويرجع جانب من قيمة الكتاب فى كتابة التراجم التاريخية إلى أنه صار مثلاً يحتذى فى كتابة التراجم التاريخية خلال عصر النزعة الإنسانية .

ولم يكن للمؤرخين الرومانيين بوجه عام أصالة المؤرخين اليونانيين ، وقد عالجوا الكتابة التاريخية متأثرين بطريقة المؤرخين اليونانيين فى كتابة التاريخ ومتخذيهم قدوة ومثلاً ، ومهما يكن فى كتابة المؤرخين الرومانيين من عيوب ونواحى قصور فإن كتابتهم التاريخية أصح منهجاً وأجدر بالثقة وأقل تأثراً بالأساطير والتعصب العقيدى من الكتابات التاريخية التى

ظهرت خلال العهد الوسيط ، والتى أعادت مستوى الكتابة التاريخية إلى ما قبل عهد هيكاتيوس المليتى .

الكتابة التاريخية فى أوائل العهد المسيحى :

كان لانتصار الديانة المسيحية على الوثنية تأثير بعيد المدى فى كتابة التاريخ وفى الأفكار التى كان يسترشد بها المؤرخون ، فقد نبذت الثقافة الوثنية باعتبارها من عمل الشيطان ، واعتبرت الكتابات التاريخية التى أنتجها العصر الوثنى أنزل مستوى من الكتابات التاريخية المقدســـة التى فى التوراة ، وحامت الشكوك حول قيمة التفكير العقلى الذى كانت له المكانة العليا عند اليونانيين ، وأصبح للإيمان الدينى المحل الأعلى والركن الأقوى ، وصار الاعتقاد بما فوق الطبيعة محك الفضائل ، ونبذت منجزات الفنانين والفلاسفة والشعراء والساسة والحكماء ، وأخذت كتب اليهود المقدسة مكانة الأدب القديم ، وأعرض عن شعر هومر ومؤلفات توكوتيدس وبوليبيوس وليفيوس وغيرهم من مؤرخى العصر الوثنى ، وكتابه وشعرائه ، وقد أضر ذلك بكتابة التاريخ وعاق تقدمها ، ولكن برغم ذلك فإنه كان من غير الممكن التغلب على تأثير الثقافة الوثنية ، وكثير من رجال الدين الأوائل كانوا يستعملون اللغة الوثنية ، وقد تلقوا ثقافة وثنية قبل دخولهم فى الديانة الجديدة ، ولذلك تأثرت مثلهم

العليا السياسية وممارساتهم للشئون العملية بالعناصر الوثنية ، وكان أخذهم بفكرة تفوق العواطف والحدس على التفكير العقلى وشدة التمسك بهذا الاتجاه فى المسائل الدينية والقضايا العقيدية مصدره الأفلاطونية الجديدة ، فقد أسبغت على التفكير الدينى هالة فلسفية فاخرة ، وقد كان لها تأثير واضح فى تفكير القديس أغسطين ، وكان هذا الاتجاه يمنع الوقوف موقف الشك أمام مصادر المعرفة التاريخية ، ويعوق توجيه النقد إليها ، وتسليط الضوء عليها .

وذهب المؤرخون المسيحيون الأوائل إلى أن الحركة التاريخية جزء من الحركة الكونية التى يشترك فيها الله والإنسان ، وقد تجلى التعبير عن هذا الاعتقاد فى أوضح صوره فى كتاب «مدينة الله» الذى كتبه القديس أغسطين ، وكانت الفلسفة التاريخية التى ضمنها هذا الكتاب مستمدة من أصول فارسية وهيلينية وعبرية ، فالحركة التاريخية صراع بين قوى الخير وقوى الشر . وهى فى معناها التاريخى الأرضى صراع بين «مدينة الله» وهى نخبة المؤمنين بإله اليهود والمسيحيين و «مدينة الشيطان» وهو الاسم الذى أطلق على أشياع الوثنية المعاصرين والسابقين ، وسيسفر هذا الصراع عن انتصار المدينة الأولى وهدم المدينة الأخرى [illegible]

ولم يتبع المؤرخون المسيحيون طرائق توكوتيدس وبوليبوس فى التحقيق والتثبيت ، لأن اتخاذ الموقف الناقد لما ورد فى التوراة وسلوك [illegible]

هيكتيوس بإزاء الأساطير اليونانية كان يعد خروجاً على العقيدة ، ولذلك كانت الكتب الدينية تفسر تفسيرات تتضمن الإشارة إلى المعانى الخفية التى تشتمل عليها تلك الكتب الملهمة ، وكان هذا الاتجاه بديلاً من التحليل النقدى السابق اتباعه فى المنهج التاريخى ، واتبعت هذه الطريقة فى تفسير الوثائق التاريخية ، وقسم التاريخ قسمين هما : تاريخ دينى مقدس وتاريخ دنيوى ، وتتبع فى تفسير التاريخ المقدس طريقة التفسير الرمزى لما يصعب تصديقه أو يتعذر فهمه ، ولا يعزى أسباب تأخر التفكير التاريخى إلى تمكن السيطرة الدينية فحسب ، فإن عصر الإمبراطورية الرومانية المتأخر كان عصر تخلف فكرى عام ، وقد كان لهذا التخلف تأثيره فى الكتاب الوثنين والكتاب المسيحين على السواء ، ومن أشهر الكتب التاريخية التى ظهرت فى هذه الفترة كتاب إيزيبيوس بامفيلوس أسقف قيصرية (٢٦٠ – ٣٤٠ ميلادية) المسمى بالحوليات ، وقد كتبه ليكون مقدمة للكتابة عن تاريخ الكنيسة ، وكتابه يدل على ما بذل من جهد فى جمع المعلومات وعلى سعة معرفته وميله إلى سرعة التصديق وتجنب المناقشة الناقدة ، وقد كتبه باللغة اليونانية وكان لا يستطيع قراءتها فى ذلك العصر سوى عدد من العلماء فى الإمبراطورية الغربية ، ولذلك كانت هناك حاجة ماسة إلى نقله إلى اللغة اللاتينية ، وقام بذلك العالم الأب جيروم سنة ٣٧٩ ميلادية ، ولم يكتف رجال

الدين بكتابة الحوليات ، وكانت هناك حاجة ماسة إلى كتابة تاريخ عالمى يرد عن المسيحية بعض التهم التى رماها بها أعداؤها الوثنيون ، وأخصها اتهام المسيحية بأنها المسئولة عن النكبات التى حلت بالدولة الرومانية ، وقد قام بتنفيذ هذه التهمة بولوس أروزيوس (٣٨٠– ٤٢٠ ميلادية) وقد جمع مواد كتابه بين سنة ٤١٥ وسنة ٤١٨ ميلادية واسم كتابه «كتب التاريخ السبعة ضد الوثنيين» وكان أوروزيوس من أتباع القديس أغسطين ومساعديه ، ويؤخذ على مؤرخى هذه الفترة تقصيرهم فى تحليل القوى العميقة والدوافع العتيدة التى كانت تعمل فى تلك الحركة الدينية التى كانوا يتولون وصفها ، ويتتبعون تاريخها ، وكان أهم أسباب ذلك فرط عنايتهم بتدوين أخبار الخوارق والمعجزات والقديسين والشهداء ، ومن أهم التراجم الذاتية التى ظهرت فى ذلك العصر اعترافات القديس أغسطين .

الكتابة التاريخية فى العهد الوسيط :

كان ممثلو الكتابة التاريخية فى العهد الوسيط من رجال الدين ، ولذلك كان يغلب على كتابة التاريخ وجهة النظر الدينية ، وكان الكثيرون من كتاب التاريخ فى ذلك العهد ينتقصون سعة الاطلاع الكلاسيكى أو اللاهوتى التى كانت طابع المؤرخين فى العهد المسيحى المتقدم ، وكان

هؤلاء المؤرخون أميل إلى سرعة الاعتقاد والتصديق منهم إلى التحرى والتدقيق فى قبول الأخبار ورواية الأحداث ، ولم يكن هناك تفريق بين الواقعى والمثالى أو الحق التاريخى والحق الشعرى ، وكانت الملاحم الشعرية تعد مراجع تاريخية ، ولم يكن هناك ما يحول دون تزييف الأخبار ، وتزوير الوثائق والأسانيد ، ولم تكن هناك عناية بكشف الحقائق وإزهاق الأباطيل مادامت الوثائق والأخبار المزيفة تخدم قضية من قضايا العصر ، وتؤيد معتقداً من المعتقدات الشائعة ، والواقع أن ملابسات الأحوال السائدة فى العصر الوسيط كانت تساعد على ذلك ، فقد عمت الفوضى ، وخيم الظلام بعد سقوط الحضارة الرومانية ، وخمدت الحركة الفكرية ، وساد الجهل والتخلف ، وفقد الكثير من الكتب المدرسية الهامة ، وكان التعصب الدينى الضيق من دواعى سلب بعض المكتبات وإحراق ما بها من مؤلفات قيمة ، ومن قبيل ذلك حرق مكتبة الإسكندرية الشهيرة ، وكان السفر جم التكاليف وغير مأمون العاقبة ، ولذلك صارت الثقافات محلية ضحلة ، وكان الرهبان هم طبقة العلماء فى العصر الوسيط فى أوربا ، وكان المؤرخون الذين يظهرون بطبيعة الحال من صفوفهم ، وقد بذلوا جهداً فى كتابة التاريخ ، ولكن التعصب الدينى وشدة التعلق بالأوهام والخرافات ومراعاة المصالح الكنسية المختلفة كانت تفسد عليهم أمرهم ، وكانت المطامع الشخصية والولاء لبعض الجماعات

والرغبة فى مساندة بعض المذاهب تقف حجر عثرة فى سبيل تحرير التاريخ وتقدمه ، وكان حرص بعض المؤرخين على الولاء لبعض الأسر والأمراء أصحاب السيطرة والنفوذ يجعلهم أكثر اهتماماً باسترضاء السادة حماتهم والذين يتفيئون ظل رعايتهم منهم بالحرص على الحق التاريخى ، والمؤرخون فى العهد الحديث يكتبون للرأى العام ، ولكن فى العصر الوسيط كانت معظم الكتابة التاريخية للإشادة بتاريخ أنصار الأدب وحماته من الأمراء والأعيان ، أو لنصرة جماعة من الجماعات ، أو تأييد مذهب من المذاهب الرائجة .

الكتابة التاريخية فى العهد الإسلامى

كان للعرب عند ظهور الإسلام نصيبهم من الأخبار التاريخية التى تختلط فيها الحقائق والأساطير اختلاطا يجعل التمييز بينهما من الأمور الشاقة لعدم وجود مدونات يرجع إليها عند المقابلة والتمحيص ، والموازنة والتحقيق . وكان أكثر هذه الأخبار يدور حول ما يسمى «أيام العرب» وحروبهم قبل الإسلام ، وأنسابهم . وأخبار بعض القبائل البائدة ، مثل عاد وثمود وطسم وجديس ، وشذرات مما يسمعون من أخبار التوراة والتلمود . ولم يكن العرب فى الجاهلية أمة بدائية كما قد يتبادر إلى الذهن ، فقد كان العصر الجاهلى فترة طويلة الأمد بين حضارات العرب

القديمة فى اليمن وبتراء وتدمر والحيرة وبين الحضارة الإسلامية ، ولم تكن الكتابة فى العصر الجاهلى واسعة الانتشار ، ولكنها مع ذلك لم تكن مجهولة الجهل كله ، بل كانت شائعة الاستعمال فى كتابة العهود والمواثيق والصكوك والرسائل . ولكن العقلية الجاهلية كانت أقدر على قرض الشعر منها على معالجة كتابة التاريخ ، كانت عقلية شديدة التعصب للقبلية نزاعة إلى الأسطورة والخرافة ، قليلة الصبر على المراجعة والتحقيق ، متشبعة بروح عصرها وتقاليده ، معتزة بعروبتها محتقرة لغيرها من الأمم . ومثل هذه الحالة لا تعوق قرض الشعر ، بل قد تكون من بواعث التشجيع على نظمه ، لأن فيها مايحفز الخيال ويثير العاطفة ، ولكنها عقبة فى طريق النضج الذى تستلزمه الكتابة التاريخية .

وفى أوائل عهد الإسلام شغل المسلمون بالفتوح والحروب والغزوات حتى توطدت مكانة الإسلام ، ورست قواعده ، وعلت مكانته ، واستوثق أمره ، ولما هدأت فورة الفتوح ، وحدث نوع نسبى من الاستقرار بدأ المسلمون يتجهون إلى إثبات الأخبار ، وتسجيل الأحداث ، وأقبلوا على جمع الأحاديث النبوية وتفسير القرآن .

وقد نشأ التاريخ الإسلامى نشوءاً طبيعيًا استجابة لحاجة المجتمع الإسلامى ، ويبدو أن مؤرخى العرب لم يعرفوا كتب التاريخ اليونانية أو الرومانية لأن شيئاً منها لم ينقل إلى اللغة العربية ، ولذا نشأت كتابة

التاريخ الإسلامى على غير مثال سابق وكشفت عن خصائص امتازت بها الأمة الإسلامية . وأغلب مؤرخى الإسلام لم يكونوا من المؤرخين الرسميين الذين تكلفهم الدولة الرجوع إلى الوثائق ، وجمع الأسانيد ، وكتابة التاريخ . وإنما كانوا يتقدمون بمؤلفاتهم التاريخية إلى المجتمع الإسلامى برمته . ولا يعيشون فى كنف الأمراء ، ولا يعتمدون على معونة الدولة . ولم تخل كتابتهم بطبيعة الحال من التأثر ببيئتهم ، ونزعتهم المذهبية وعقيدتهم السياسية . ولكن حظهم من النزاهة كان موفوراً إلى حد كبير . فهم لم يكتبوا التاريخ فى الأعم الأغلب إرضاء للخلفاء والأمراء ، وإنما كتبوه بدافع من ميلهم إلى البحث التاريخى وخدمة المجتمع الإسلامى بوجه عام .

وفى أول الأمر كان التاريخ ممتزجا برواية الحديث وتفسير القرآن ، وذلك لأن المسلمين لما اشتغلوا بجمع القرآن وتفسيره واستقصاء الأحاديث النبوية احتاجوا إلى تحقيق المناسبات التى نزلت فيها الآيات والمشاهد التى وردت فيها الأحاديث ولذا عمدوا إلى جمع أخبار السيرة النبوية قبل كل شىء . وقد حوى القرآن الشرائع والأحكام والأخبار ، وكان هم المسلمين تلاوته وتفهم أحكامه وإشاراته لأنه وضع أسس الحياة والدين ، وفيه الأحكام التى تحدد السلطة وتشد أزر الخلافة ، وقد أشكل عليهم فهم بعض أحكامه وتفسير جانب من معانيه ، فعمدوا إلى الأحاديث

ليستعينوا بها على توضيح المشكل وجلاء الغامض ، وصار همهم جمع الأحاديث ممن سمعوها أورواها أحد سامعيها بالإسناد المسلسل ، وقد وجدوا تباينًا ولونًا من ألوان التناقض فى الروايات ، فبذلوا جهداً فى التفريق بين الأحاديث الصحيحة والأحاديث الزائفة المدسوسة ، وقد جرهم ذلك إلى درس طبقات المحدثين والأحوال التى تناولوا فيها الأحاديث .

وفى القرآن إشارات إلى الأمم الخالية ، والقبائل ، والأنبياء السابقين ، ولذلك حرص المسلمون على فهم هذه الإشارات وتوضيح مدلولها ، وكان الإسلام قد أظل الكثيرين من اليهود والنصارى فاستعان بهم المسلمون على توضيح هذه الإشارات ، وحدثهم هؤلاء عن أصول هذه الإشارات فى التوراة والتلمود ، فضم المسلمون هذه الأخبار إلى التفسير والتاريخ ، وقد اشتهرت باسم الإسرائيليات ، وكان فى طليعة من لهم أثر فى ذلك كعب الأحبار المتوفى سنة ٣٤ هجرية ووهب بن منبه المتوفى سنة ١١٠ هجرية .

ومن العوامل التى ساعدت على تنشيط كتابة التاريخ النظام المالى فى الحكومة الإسلامية الباكرة ، لأن الخراج الذى كانت تؤديه البلاد التى فتحها المسلمون كان يختلف على حسب فتحها صلحا أو عنوة أو بعهد ، وتبع الأحداث السياسية والاجماعية التى حدثت فى أثناء الفتح . ولذلك

كان الأمر يقتضى بحث تاريخ الفتح ومعرفة ملابساته ، وكان نظام العطاء كذلك يستلزم معرفة الأنساب والسوابق فى الدفاع عن الإسلام ونشر دعوته .

وقد أثارت هذه العوامل مجتمعة الوعى التاريخى عند المسلمين ، وأدت إلى تكاثر الكتابات التاريخية ، وبدأ تدوين بعض هذه الأخبار المتناثرة الدائرة على أفواه الرواة فى رسائل موجزة ، وفى نطاق جد محدود فى عهد معاوية ، ولا يعرف على وجه التحقيق مؤلف أول كتاب أوكتيب فى التاريخ الإسلامى ، ويتنازع فضل الأسبقية فى هذا المجال أربعة رجال وهم : زياد بن أبيه ، فقد نسبوا إليه كتابا ألفه فى مثالب العرب ، وإذا صحت نسبة هذا الكتاب إليه فأغلب الظن أنه ألفه بعد مسألة استلحاق معاوية إياه فى النسب ، فقد أثار هذا الاستلحاق ضجة فى العالم الإسلامى ، ولم يخف بعض الشعراء سخريتهم بمهزلته ، ومن المحتمل أن يبعث ذلك زياداً على تأليف هذا الكتاب ليكون سلاحا يرد به التهجم على نسبه ، ومهما يكن من الأمر فإن هذا الكتاب من الكتب المفقودة ، وقد توفى زياد سنة ٥٣ هجرية .

ويعزى إلى دغفل النسابة تأليف كتاب « التظافر والتناصر » وهو كتاب أسمار شائقة وأحاديث طلية ، ويحوم الشك حول حقيقة تأليف هذا الكتاب ، وإذا صح وجوده فهو من قبيل كتب الأسمار والنوادر وليس من

كتب التاريخ الخالص والأخبار الموثوق بصحتها .

ونسب بعض الرواة مدونات إلى عبد الله بن عباس ، ولا يذكرون أنه أطلق عليها اسما خاصًا ، والأرجح أنها كانت تتضمن بعض ما كان يقوله فى مجالسه التى كان يفسر فيها القرآن .

ورابع هؤلاء الرجال عبيد الله بن شرية المتوفى سنة ٧٠ هجرية ، وقد اتخذه معاوية سميراً ومحدثا يروى له طرائف الأخبار وغرائب الأحاديث والسير ، وقد دونت أحاديثه فى كتاب عنوانه «كتاب الملوك وأخبار الماضين» وكتابه أقرب إلى كتب المسامرات منه إلى كتب التاريخ ، وأمر هذا الكتاب لا يخلو من الشك ، بل قد تناول الشك وجود مؤلفه نفسه .

وواضح أن هذه الكتب التى تستبق الأولية فى كتابة التاريخ تغلب عليها صفة كتب السمر والأحاديث والنوادر ، وقد ظهرت بعدها كتب السير والمغازى وهى أقرب إلى كتب التاريخ الصحيح من الكتب السابقة ، لأنها كانت تعتمد على الأحاديث المروية عن النبى ﷺ ، والتى يتحرى فى جمعها الصحة وتلتزم الدقة ، وكان لذلك فضل كبير فى رفع مستوى الكتابة التاريخية والاتجاه بها إلى الطريق السوى ، وقد كان لهذا الاتصال بين رواية الأحاديث وكتابة التاريخ تأثير بالغ فى الطريقة التى سار عليها مؤرخو الإسلام فى كتابة التاريخ .

والمعروف أن أول من قام بالتأليف فى المغازى هو إبان بن عثمان بن عفان الذى توفى سنة ١٠٥ ه أو قبلها ، وكان إبان من علماء الحديث والفقه . وقد اشترك فى خروج عائشة وطلحة والزبير للطلب بثأر عثمان وشهد واقعة الجمل .

والمرجع الذى يعتمد عليه القائلون بأن إبان هو أول من ألف فى المغازى هو رواية ابن سعد صاحب الطبقات فى حديثه عن المغيرة ابن عبد الرحمن ، والظاهر أن هذه المغازى التى رواها المغيرة عن إبان لم تكن كتاباً بالمعنى الدقيق للكلمة وإنما كانت مجموعة من الأخبار حول حياة النبى .

وممن عاصروا إبان وألفوا فى التاريخ عروة بن الزبير وكان يعد أحد الفقهاء السبعة بالمدينة وقد مكنته إقامته فى المدينة من الإلمام بكثير من الأخبار .

ومن أشهر من عرف بكثرة المعلومات التاريخية وكان من السباقين إلى رواية أخبار السيرة والمغازى وهب بن منبه المتوفى سنة ١١٠ هجرية وكانت له معرفة واسعة بأحوال الأوائل وأخبار الأنبياء . وقد ولد باليمن ونشأ بها وولى بها القضاء ويقول عنه ياقوت الحموى(١) . إنه كان من خيار التابعين ثقة وصدقاً ، وكان فيما يقال كثير النقل من الكتب القديمة

(١) معجم الأدباء جزء ١٩ ص ٢٥٩ .

المعروفة بالإسرائيليات وينسب إليه كتاب اسمه « الملوك المتوجة من حمير وأخبارهم » وقد عرف وهب ما تحويه كتب المسيحيين واليهود المقدسة عن طريق صلاته باليمنيين من أهل الكتاب . وكانوا كثيرين باليمن . وهو من الثقات الذين يعول عليهم فى قصص الأنبياء خاصة . وطريقته أقرب إلى القصص التاريخى منها إلى التاريخ الخالص .

واشتهر محمد بن مسلم الزهرى بسعة العلم ومعرفة الأنساب ، وساعد حبه لجمع الأخبار ذاكرة قوية ، وكان معنيًا بكتابة ما يسمع على غير ما كان مألوفاً بين معاصريه ، وقد ألف إلى جانب المواد التى دونها لاستعماله الخاص كتاباً عن القبائل العربية بأمر من خالد القسرى والى العراق ، ولكنه لم يتمه ، وقد كتب فى السيرة كذلك . وتوفى سنة ١٢٤ هجرية .

وأكثر ما كتبه المؤرخون المتقدمون قد فقد وضاع . أو لحقه التحريف وأضيف إليه ما لم يكن به ، ولم يصل إلينا منها كاملاً سوى سيرة عبد الملك بن هشام المعروفة بسيرة ابن هشام ، وهى مختصرة من سيرة ابن إسحاق المتوفى سنة ١٥١ هجرية ، وقد بز ابن إسحاق جميع المؤرخين المتقدمين وأناف عليهم بغزارة معلوماته . وسعة إحاطته . وقدرته على تنسيق الأخبار التى تجمعها . وبراعته فى عرضها . وكان من أسباب غزارة معلوماته اتصاله بكبار علماء عصره مثل عاصم بن عمر وعبد الله بن

أبى بكر والزهرى . وهو لم يكتف بذلك . بل حاول أن يحصل على الأخبار من شتى المصادر . وقصد مصر ، وزار الإسكندرية وسمع من يزيد بن أبى حبيب وعاد إلى المدينة . ورحل منها إلى الكوفة . وقد اتصل بالخليفة المنصور . وتقول الرواية إن المنصور قال له « اذهب فصنف كتاباً منذ خلق الله تعالى آدم عليه السلام إلى يومك هذا » ولما صنف ابن إسحق كتابه قال له المنصور « لقد طولت يابن إسحاق . اذهب فاختصره » .

وحفظ المنصور الكتاب الكبير فى خزانته .

ومهما يكن نصيب هذه الرواية من الصحة فإن ابن إسحاق وضع كتابه على أساس الأحاديث التى جمعها وهو فى المدينة والآراء مختلفة فى علمه والثقة به . وبرغم اختلاف الآراء فى تقدير الأخبار التى جمعها ابن إسحاق فإن لكتابه مكانة كبيرة من الناحيتين التاريخية والأدبية لقدم عهده وغزارة مادته .

ومن أشهر نقلة الأخبار أبو مخنف وعوانة بن الحكم وقد روى عنه الأصمعى والهيثم بن عدى وكثير من أعيان العلماء .

ومن أوسع مؤلفى القرن الثانى الهجرى علماً وأكثرهم مؤلفات فى التاريخ والسير على بن محمد المدائنى وقد ولد سنة ١٣٥ هجرية وتوفى سنة ٢٢٥ وقد ذكر ياقوت من مؤلفات المدائنى عدداً كبيراً من الكتب تكاد

تكون أقرب إلى فصول قائمة بذاتها منها إلى أن تكون كتباً شاملة مبوبة . منها كتاب عن أمهات النبي وآخر عن صفته وكتاب عن أخبار المنافقين وكتاب عن عهود النبي ، ومنها كتاب عن أخبار قريش ومجموعة أخرى من الكتب فى أخبار الخلفاء ، وكتب أخرى فى الأحداث منها كتاب الردة وكتاب الجمل وسلسلة أخرى من الكتب عن الفتوح . منها كتاب فتوح الشام وكتاب فتوح العراق ، ومنها كتب فى أخبار العرب وكتب أخرى فى أخبار الشعراء . وواضح أن جهده الأدبى كان ضخماً . وقد انتفع مما كتبه المدائنى المؤلفون الذين جاءوا بعده فأكثروا من النقل عنه :

والمؤرخ الذى حاز شهرة واسعة فى القرن الثانى الهجرى هو الواقدى واسمه محمد بن عمر ، وكان عالماً بالحديث والمغازى والفتوح . ومؤلفاته كثيرة منها كتاب المغازى وكتاب أخبار مكة وكتاب السيرة وكتاب فتوح الشام ، وقد ولد سنة ١٣٠ هجرية وتوفى سنة ٢٠٧ .

وكثير من الروايات التى جمعها هؤلاء المؤرخون الإخباريون المتقدمون محفوظة فى مؤلفات المؤرخين الذين جاءوا بعدهم ، فقد فقدت معظم مؤلفاتهم ، وبرغم ضياع مؤلفات هؤلاء الإخباريين فإن جهدهم لم يذهب عبثاً ، وقد أدى أمثال المدائنى والهيثم وهشام وأبى مخنف وابن إسحاق وسائر مؤرخى الطليعة خدمة كبيرة للأدب العربى والتاريخ

الإسلامى بما جمعوا من أخبار الحوادث الهامة والروايات الطريفة . ومهدوا السبيل لظهور كبار المؤرخين الإسلاميين أمثال الطبرى واليعقوبى والمسعودى ومسكويه وابن خلدون وغيرهم من المؤرخين البارزين الذين افادوا من المادة الضخمة الدسمة التى جمعها هؤلاء الرواد والتراث القيم الذى خلفوه . بعد أن أمضوا فى جمعه بياض نهارهم وسواد ليلهم .

وتدل أكثر القرائن على أن التاريخ الإسلامى نشأ نشأة مستقلة غير متأثرة بما كتبه أعلام المؤرخين اليونانيين أو الرومانيين ، فلم يعرف العرب أمثال هيرودوت وتوكوتيدس وزيتوفون عند اليونان ، أو تيتوس ليفيثوس وتاسيتوس عند الرومان . وكانت نشأته استجابة لمطالب العالم الإسلامى وحاجاته وتطوراته .

ومن المزايا التى اشتهر بها مؤرخو الإسلام مراعاة الدقة فى تسجيل الحوادث وتأريخها بالسنة والشهر واليوم ، وينقل المستشرق مارجليوث فى كتابه عن مؤرخى العرب عن المؤرخ البريطانى بكل قوله : « إن التوقيت على هذا النحو لم يعرف فى أوربا قبل عام ١٥٩٧ ميلادية » . وقد ابتدأ التاريخ بالهجرة فى عهد عمر بن الخطاب ثانى الخلفاء الراشدين .

والخصلة الثانية التى امتاز بها التاريخ الإسلامى هى الإسناد ، وهو إرجاع الرواية التاريخية إلى شخص شاهد عيان ، وفى سبيل تحري صحة الأحاديث المنسوبة إلى النبى ﷺ ، نشأ نوع من التحقيق يقوم على

فحص سلسلة الإسناد وتتبع كيف وصل الحديث إلى كل جيل من الأجيال المتوالية . وكان دارسو الحديث فى بادئ الأمر هم المؤرخين . ولكن التاريخ استقل بالتدريج عن علم الحديث . وصار الإخبارى شخصاً غير المحدث .

ولم تقو حركة كتابة التاريخ الإسلامى وتنشط إلا فى أواخر عهد الدولة الأموية . ولعل السبب فى هذا التأخير هو قوة ذاكرة العرب واعتمادهم الشديد على هذه الذاكرة الواعية القوية . يضاف إلى ذلك اعتبار آخر أشار إليه مار جليوث ، وربما كانت له أهميته . وذلك أن الحرص على معرفة السنة كان من شأنه أن يعلى مكانة الحفاظ ويجعل الحاجة إليهم ماسة . ووظيفة الحافظ هى أن يكون عنده معرفة دقيقة شاملة واسعة للحوادث التى يرويها . وهذه المكانة التى بلغها الحفاظ كان مما يضعفها إمكان الحصول على هذه المعرفة بتفصيلاتها من الكتب . وقد تعنت الحفاظ فى تحصيلها والتثبت من صحتها . وكان يهم هؤلاء الحفاظ أن يظلوا مرجعاً للتحصيل وأوعية للعلم . على أن المادة التى بدأت تكتب فى عهد العباسيين لم تؤثر فى مكانة الحفاظ . وأكثر مؤلفى الكتب أنفسهم كانوا من هذه الطبقة . وأرجح أن سبب اضطرارهم إلى الكتابة والتدوين على نطاق واسع هو تكاثر المعلومات التاريخية إلى حد جعل الذاكرات حتى الذاكرات القوية منها تنوء تحت أعبائها ، وقد أوجد

الحفاظ حلاً وسطاً ،وهو طريقة الإجازة . وهى أن يقرأ القارئ الكتاب ويدرسه على المؤلف نفسه أو من تكون له الأهلية والاستعداد لذلك .

وفى عصر المؤرخ الكبير الطبرى كان الناس يسمعون منه التاريخ والتفسير . وكان العلم المستمد من الكتب وحدها ينتقص ويطعن فى قيمته ، ويفضل عليه العلم المنقول بالسماع . فهناك إذن أسباب أبطأت بحركة الكتابة والتدوين . إبرزها أن وظيفة الحافظ جعلت الكتب لا لزوم لها ، ثم الاعتقاد بأن الكتب المكتوبة قد تكون وثائق لا يعتمد عليها ولا يوثق بها لأنها قابلة للتزويد والتزييف .

وتغير هذا النوع من التفكير مع الزمن ، وقد استلزم تفسير القرآن ضروباً من المعرفة ربما كان فى طليعتها المعرفة التاريخية ، فالقرآن يشير إلى بعض الحوادث المعاصرة لنزوله . ومن ثم نشأت الحاجة إلى معرفة مناسبات نزول الآيات ، والنصوص القرآنية تتناول الحوادث فى صورة موجزة ، وتكتفى بالإيجاز عن الإسهاب والإطناب والتفصيل لتستنبط الحكم والقاعدة أو لتستخرج العبرة والموعظة ، والذين نزلت فيهم الآيات كانوا يعرفون تفصيلات الظروف الموجبة لنزولها . ويعرفون المناسبات والملابسات ، ومن ثم احتاج المفسرون إلى تاريخ وإلى دراسة الظروف التى نشأ فيها الإسلام ليحسنوا قراءة القرآن ويجيدوا فهمه . وفى القرآن إشارات تاريخية ولمحات عن الأمم السالفة ومواقف الأنبياء المتقدمين ،

والذى يريد أن يتفقه فى الدين ويستمكن من العلم يحرص على الرجوع إلى كتب المسيحيين واليهود لتزداد معلوماته وتتسع آفاق معرفته ، ولم يكن الرجوع إلى تلك الكتب محرماً أو ممنوعاً . ولكنه فى الوقت نفسه لم يكن يشجع عليه . ومن ناحية أخرى كان اليهود والمسيحيون الذين دخلوا فى الإسلام يميلون إلى الانتفاع بما فى ذاكراتهم عن الحوادث التى أشار إليها القرآن الكريم إشارات سريعة لينفذوا إلى الجوهر واللباب ، وقد اقتضى ذلك التوسع فى معرفة التاريخ والاستكثار من أخبار الأنبياء المتقدمين والأمم الوارد ذكرها فى القرآن .

ومن أسباب التوسع فى التاريخ كذلك رغبة بعض الخلفاء فى استماع أخبار الملوك السابقين لينتفعوا بتجاربهم ، ويتعرفوا سياستهم ، فقد ذكر المسعودى أن معاوية كان يستمع كل ليلة إلى أخبار العرب وأيامها ، والعجم وملوكها وسياستها لرعيتها ، وسير ملوك الأمم وحروبها ومكايدها وغير ذلك من أخبار الأمم السالفة . وكذلك كان الخليفة المنصور يحرص على معرفة التاريخ للاستفادة من تجارب الماضين واستخلاص العبرة من سياستهم .

وحاجة النظام القضائى جعلت معرفة التاريخ ضرورة لازمة ، وذلك لأن نشوء السنة كان يستدعى معرفة الأعمال الداعية لذلك ، وقد كانت دراسة الأحاديث مما ساعد على نشوء فن التراجم وعلم الجغرافيا ، وذلك

لأن اختيار الأحاديث الصحيحة كان يدعو إلى معرفة حياة رواة الحديث وأخلاقهم وسجاياهم وعقليتهم وسلامة تمييزهم والبيئة التى عاشوا فيها وتلقوا العلم بها .

ويقول الأستاذ روبرت فلنت وهو يتحدث عن كتابة التاريخ عند العرب فى كتابه عن تاريخ فلسفة التاريخ » (١) لم تكن كتابة التاريخ عند العرب خالية من المزايا الواضحة ، ولكنها لم تصل قط إلى المرحلة العالمية أو الفلسفية ، وأكثر الذين عالجوا كتابة التاريخ لم يتجاوزوا مرحلة الوصف والسرد الحولى ، والمرجح أن ابن الأثير (١١٦٠ - ١٢٣٢ ميلادية) مؤلف كتاب التاريخ العام يمكن أن يستثنى من ذلك ، وهو أقرب ما يكون إلى تلك المرحلة ، فهو لم يكتف بسرد الأحداث فى نظام حدوثها ، وإنما حاول كذلك أن يكشف سوابقها الطبيعية . ونتائجها ويظهرها ، ولكنه لا يذهب إلى أبعد من ذلك ، فهو لم يحاول أن ينفذ ببصره إلى تطور الأفكار العامة التى تفسر التاريخ ويتعرف أثر أسباب التغيرات الاجتماعية الأعمق الذى تظهر الأسباب الظاهرة المباشرة نتيجة له أو تحدث بسببه ، وأما من ناحية علم التاريخ أو فلسفته فإن الأدب العربى قد ازدان باسم شديد اللمعان ، فلا فى العصر المدرسى ولا فى عالم العصر الوسيط المسيحى يبرز من له مثل اللمعان ، وإذا عددنا ابن خلدون

(١) ص ٨٦ من كتاب تاريخ فلسفة التاريخ

(١٣٣٢ - ١٤٠٦) مجرد مؤرخ فإن بين مؤلفى التاريخ عند العرب من يفوقه ، ولكنه بوصفه صاحب نظرية فى التاريخ ليس له نظير فى أى عصر أو أى صقع حتى ظهور فيكو بعد أكثر من ثلثمائة سنة . وأفلاطون وأرسطو وأغسطين ليسوا نظراء له . وجميع الآخرين ليسوا جديرين حتى يذكر أسمائهم مع اسمه ، وهو جدير بالإعجاب لأصالته وفطانته وعمقه وسعة إحاطته فى فلسفة التاريخ كما كان دانتى فى الشعر وروجر بيكون بين العلماء ، وحقيقة أن مؤرخى العرب جمعوا المواد التى استطاع أن يفيد منها ، ولكنه هو وحده الذى عرف كيف ينتفع بها » وعقد بعد ذلك فصلا قيماً فى كتابه لتحليل آراء ابن خلدون وتقدير فلسفته التاريخية .

ويستهل الأستاذ بارنز حديثه عن المؤرخين المسلمين فى العصر الوسيط بقوله : « من نواح كثيرة لم تكن أكثر الحضارات تقدماً فى العصر الوسيط الثقافة المسيحية بحال من الأحوال ، وإنما كانت حضارة الأقوام الذين يدينون بدين الإسلام ، وكذلك كان بعض أقدر مؤرخى العصر الوسيط من المسلمين ، وأعظمهم ابن خلدون وهو يفوق بمراحل أى مؤرخ مسيحى فى العصر الوسيط فى تفهمه لمبادئ التقدم الإنسانى والثقافى ، حتى ظهور فولتير فى القرن الثامن عشر لم يكن مؤرخ مسيحى يساميه فى

هذا الاعتبار ، والمؤرخون المسلمون فى مجموعهم إذا قارناهم بالمؤرخين المسيحيين فإنهم يمتازون باستقلال الرأى والنزاهة النسبية كما كانوا خيراً منهم فى استعمال التسلسل التقويمى . وكان تاريخهم للمواد والأحداث أدق بكثير من الكتاب المسيحيين» .

مراجع البحث

(1) The Interpretation of History. By Max Nordau.

(2) Introduction To the History of History.
By I.J. shatwell.

(3) A History Of Historecal Writing.
By Harret Elmer Barnes.

(4) Why we Read History. By K.B. smellie.

(5) The Ancient Greek History. By K.B. Bury.

(6) The Ancient Greek Literature. By C.M. Boura .

(7) History of the Philosophy of History. By Robert Flint.

(8) History By V. Gordon Childe.

مراجع عربية

(١) بعض مؤرخى الإسلام – تأليف على أدهم

(٢) التاريخ والمؤرخون العرب – تأليف الدكتور السيد عبد المنعم سالم

(٣) علم التاريخ عند العرب – تأليف محمد عبد الغنى حسن

(٤) علم التاريخ عند المسلمين – تأليف فرانزروزنتال وترجمة الدكتور صالح أحمد العلى

(٥) دائرة معارف الشعب – عدد ٧٣ سنة ١٩٦٠

(٦) الإعداد بالتوبيخ لمن ذم التاريخ تأليف السخاوى

(٧) تاريخ آداب اللغة العربية لجرجى زيدان

(٨) ضحى الإسلام (الجزء الثانى) تأليق أحمد أمين

صدر من هذه السلسلة :

١ – طعام الفم والروح والعقل	توفيق الحكيم
٢ – الفضاء ومستقبل الإنسان	فاروق الباز
٣ – شريعة الله وشريعة الإنسان	المستشار على منصور
٤ – أسس التفكير العلمى	د . زكى نجيب محمود
٥ – عالم الحيوان	د . محمد رشاد الطوبى

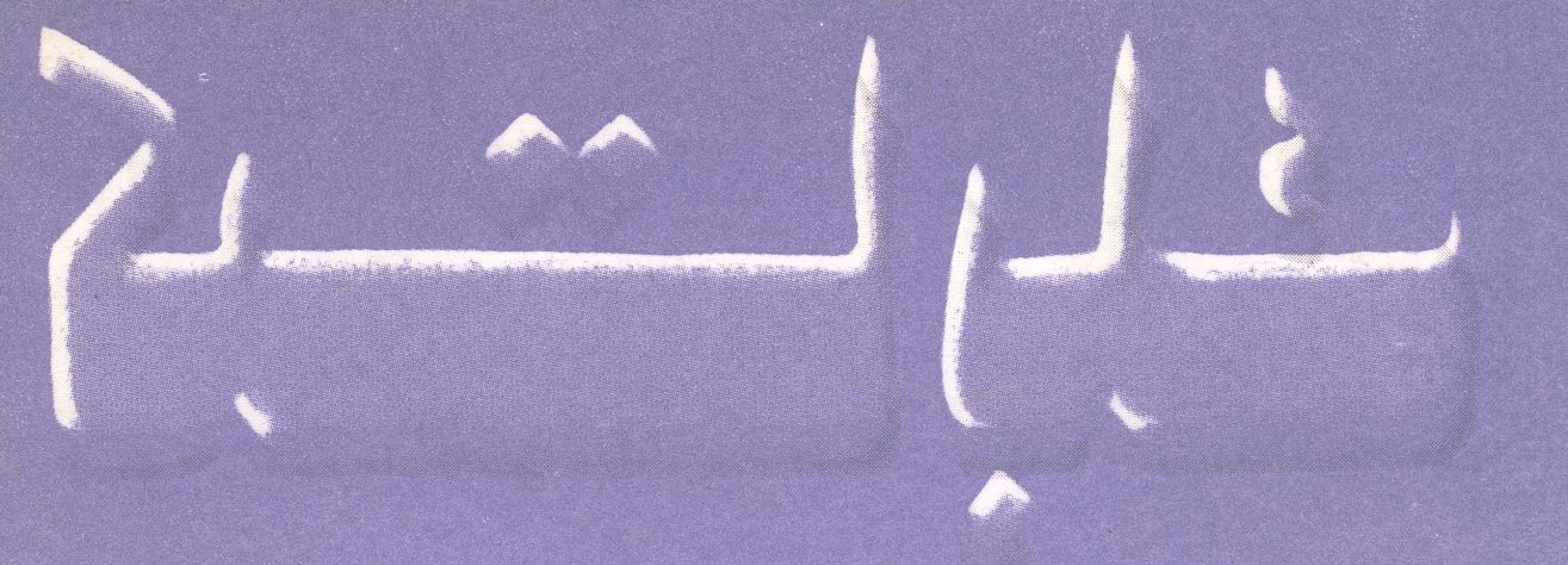
الكتاب القادم :

الفلسفة ومسارها التاريخى : د . توفيق الطويل ..

رقم الإيداع	١٩٧٧/٤٤٢٣
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧ - ٢٤٦ - ٩٨٩ - ٨

١/٧٧/٤٤

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)



هـذا الكتـاب

يلقى الباحث الأضواء على أصول الكتابة التاريخية . عبر العصور الموغلة فى القدم ، ويسير معها فى طريق تدوينها عند اليونان والرومان . وينتهى بها إلى تدوين التاريخ ف العهد الإسلامى ، وفى كل مرحلة من المراحل بضىء الباحث موضوعه ، ويتقصى كل العالم الذى يدعم كل قض والبراهين .

ج
١٠